

النسر الشهيد

للشاعر الفلسطيني

أحمد فارس(*)

تُبُّ عن الرِّدة
رابط
هو ذا وكرُ قُرَيْظِيٍّ دخيل
دقي مسماراً زعافاً
تَحْتَ مَدْمَاكَ مُسْمَى
في جدار،
في الخليل
فليكن نذراً عليك
أيها المجبول من طين الوفاء
«لا مقام لليهود في المدينة
لا مقام لليهود في المدينة»
هل نراك
يا قواماً تشتهي البندقية
فارساً صليداً همماً
دوخ الأعداء كركاً وانتقاماً
رغم صخر الهم،
والخصم المقيت،
ظل مغواراً، مكرراً
ما تَرَجَّل!!
حينذاك
تنهض الأقواس،
تعلو في سماك
ثم غار يا عزيزاً
يعتليها في وقار
يخفض الأغصان ذلاً
للأراجيح الصغار
■ ■ ■
يا قرابين الفداء،
يا طيوراً
هدها الترحال في كل سماء
هل نرانا
مثل سرب، لا فرادى
وخفافاً وثقالاً
نتباري
نفتح الجرح على الأبواب
للأقصى اعتذاراً
حينذاك
جملة الدم ستلغي كل بُدْ
في موثيق الخفاء

(■) شاعر إسلامي من فلسطين المحتلة،
ولد في جنين القسّام عام ١٩٥٧م، له
ديوان شعر تحت الطبع.

ما رأينا
أيهذا العابد المفتون شيخاً
أن صوام السنين الموجعات
دون عذر
آخر الأيام، أفطر.
ما رأينا
يا شموخاً كان يوماً
ضارباً عرض الفضاء
أن نسرأ
صار للخفاش عيناً
ترصد الأحرار
في كل سماء
ما رأينا
أيهذا الفارس المدبر جهراً
أن حرأ
طرز الأيام كركاً
آخر الجولات أدبر
ما رأينا
أيهذا الحارث الممشوق قدأ
أن ظريف الطول
من ذل
تقرم

■ ■ ■

هم غرونا
عبر أحقاد دفينة
واستعانوا بخلافات القبيلة
وكما ترصد أفعى
غيبوبة الصقر، عن الفرخ،
الصغير
باشروا بلع المدينة
■ ■ ■

ما عساك
غير إحدى الحُسنيين
ما عساك بت ترجو
بعدهما فاض المشيب!!
تلك أولى القبلتين
في حصار لا يطاق
شاقها الساري الأمين
كوكباً فوق البراق
فمتى جبريل يدنو من سماها
بجنود مردفين منزكين؟
■ ■ ■

أيها المرتد عن فعل الشهادة



الأسلوبية وإعجاز القرآن

(١)

لقد نال البحث في إعجاز القرآن عناية جمّة من الدارسين، وقد أرجعوه إلى عوامل عدة، يضيق المقام عن حصرها جميعاً (١)، والذي يهمنّا منها هو القول بأن إعجاز القرآن راجع إلى بلاغته ولغته (٢)، وبهذا خالف مآلوف كلام العرب، منظومه ومنثوره، إذ عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (٣).

ونهدف من هذه السطور إلى بيان مدى صلاحية الأدوات المنهجية التي يتيحها الدرس الأسلوبية الحديث في الكشف عن بعض جوانب هذا الإعجاز البلاغي واللغوي، بما يشبع حاجة المسلم إلى الوقوف على بعض ما في القرآن من جماليات تميزه عن سواه.

والدعوة إلى الإفادة من معطيات

الدرس الأسلوبية لا

تعدّ أمراً مقحماً على

تراثنا؛ فبين الأسلوبية

وهذا التراث وشائج

من القربى لا يصح

إنكارها، ولدينا تراث

ضخم من جهود

المفسرين،

والمصنفين في علوم

القرآن، وهو تراث

مليء بمباحث قيّمة

معنية بالجانب

الجمالي والدلالي

لعناصر اللغة

المختلفة، وفيها يرصد

السلف من علماء الإسلام ظواهر صوتية

ومعجمية وتركيبية رصدت فنياً خالصاً،

وهي ظواهر تمثل مناط الاهتمام للتحليل

الأسلوبية المعاصر، ومن ثم فإننا نعتقد



بقلم:

طارق سعد شلبي (٥)

أن الركائز الأساسية التي انبنى عليها علم الأسلوب يمكن التماسها - دون تكلف - في تراث الدراسات القرآنية.

ولسنا ندعو بذلك إلى إهمال جديد الأدوات المنهجية التي قدمتها الأسلوبية، كما أننا لا ندعو بذلك إلى الاكتفاء بما حققه القدماء، من مفسرين ومصنفين، من نتائج بحجة أن السلف من علمائنا قد قالوا الكلمة الأخيرة، أو أن الأول ما ترك للأخر شيئاً!

وثمة مبدآن يقوّضان هذا التوهم من الأساس، أولهما: طبيعة النص القرآني نفسه فهو حمّال أوجه، وهو يبدو متسامياً دوماً عن أن تحيط به دراسة، أو أن يدعي أبناء عصر من العصور أنهم قد كشفوا جميع نواحي إعجازه كشفاً نهائياً، وعلى هذا يغدو التوجه نحو درس هذا الإعجاز هدفاً ملحاً أمام حركة الدرس اللغوي والبلاغي - أو لنقل الأسلوبية - في كل العصور.

والآخر: طبيعة التقدم المعرفي الذي يثمر أدوات منهجية جديدة تمثل - بحق - تطويراً وتنمية وتعميقاً لأدوات السلف، ومن ثم فإن إغفال الجديد يحرم الدرس البلاغي واللغوي للقرآن من تلك الأدوات النافعة التي هي امتداد لجهد القدماء.

ونخلص من هذا كله إلى أن الأسلوبية تهب الآخذين بوسائلها تواصل ثرياً مع «روح» الدرس القديم بما يبشّر بالكشف عن مزيد من أوجه الإعجاز.

(٢)

وثمة أمور يجب أن يراعيها الدارس الأسلوبية متى أراد أن يلج رحاب النص القرآني، وهو أن يراعي ما لهذا النص الكريم من خصوصية، وهو ما يحتم عدة أمور منها:

أن تكون الظاهرة القرآنية أصلاً للقاعدة، فتعرض عليه وتخضع له، وكذا فعليه ألاّ يعتمد إلى أدوات منهجية لم تثبت قدرتها في مجال التطبيق؛ لأنها

أدوات وافدة لم تحقق وجودها في حياتنا النقدية، ومن هنا فإنه يجب الحذر الشديد من التعجل في تطبيق ما تضمنه الكتابات النظرية في علم الأسلوب، مما يكشف محك التطبيق عن قصورها، بل يجب على الدارس الأسلوبى أن يجعل معظم أدواته المنهجية مستقاة من التراث الزاهر للمكتبة القرآنية، مضيفاً إلى هذه الأدوات ما قر وثبت من طرق أسلوبية في الدرس، بما يتفق وهذا التراث.

وما تحتمه خصوصية النص القرآني كذلك على الدارس هو أن يتزود بخلفية معرفية دقيقة تؤهله لدراسة هذا الكتاب المعجز، فيتواصل تواصلًا حميمًا مع تراث علوم القرآن، فيقف على معاني الآيات، وأسباب النزول، وترتيب السور، وجمع القرآن وتدوينه، والمكي والمدني، وآداب القرآن وموضوعاته التي تناولها، وما إلى ذلك من أمهات المسائل التي نجدها في المصادر الأصلية لعلوم القرآن، كالبرهان للزركشي والإتقان للسيوطي.

وتحتم خصوصية النص القرآني كذلك على الدارس أن يعرض نتائجه التي يتوصل إليها، في دلالات الظواهر اللغوية والبلاغية المدروسة، على تفسير تراثي يعرفه أنه لم يتجاوز الدلالة التي سبقت الآية لبيانها، مبتعداً في ذلك عن التفاسير التي ابتدع أصحابها في الرمز والتأويل، كتفاسير الصوفية والفرق وغيرها من أصحاب الاتجاهات التي جعلت القرآن الكريم وسيلة خاضعة لما يعتقونه من أفكار، غير مهتمين بضرورة أن يكون القرآن أصلاً غير خاضع، وأن يكون تفسيره وفق منهج واضح المعالم.

(٣)

ونعرض فيما يلي بعض الجوانب المتعلقة بكيفية الدرس الأسلوبى للنص القرآني، ولعلنا نجد على رأسها ضرورة أن ينظر الدارس إلى الظاهرة نظراً كلياً

يمتد صوب القرآن كله، مؤمناً أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه وحدة واحدة، وسوره أجزاء تتكون منها هذه الوحدة الكبرى، ويتيح هذا النظر الكلي نتائج أفضل في فهم الدور الدلالي للظاهرة الأسلوبية، فما أجمل في موضع قد بسط في موضع آخر، وما قد يغمض في سورة قد يزيل غموضه بيان تقدمه سورة أخرى، مع مراعاة «السياق الجزئي» وهو موضع الظاهرة.

أما مجالات الدرس الأسلوبى للقرآن الكريم فهي متنوعة تنوع عناصر الأسلوب، والتي يمكن أن تندرج تحت أربعة مستويات؛ وهي: الصوتي والصرفي والتركيبى والتصويري، ويضم المستوى الصوتي إطارين: جزئي مفرد وهو المعنى بمخارج الحروف وصفاتها، وكل ممتد، كما يتضح في ظواهر البديع الصوتية كالسجع والجناس. ويهتم المستوى الصرفي بالتعرف على المفردات من حيث الجمود والاشتقاق ورصد أنواع المشتقات.

أما المستوى التركيبى فيرصد أنواع الجمل بين الاسمية والفعلية مع رصد ما فيه من ظواهر تركيبية بارزة، ويتمثل المستوى التصويري في الصور الجزئية كالتشبيه والاستعارة، والصور الكلية الممتدة كتلك التي وردت في وصف مشاهد اليوم الآخر أو قصص الأنبياء... وما إلى ذلك.

والدرس الأسلوبى الناجح هو الذي يتضح فيه الربط بين الظاهرة المدروسة والدور الدلالي الذي تقوم به، فليس الدرس الأسلوبى مجرد عرض وصفي لظواهر اللغة، بل إنه يتجاوز ذلك إلى بيان الدور أو الوظيفة.

وقد يعمد الدارس إلى ظاهرة واحدة فيدرسها على مستوى القرآن كله، أو إلى طائفة من الظواهر التي يجمعها

رابط لغوي أو بلاغي فيدرسها في قطاع بعينه من القرآن.

أما الدور الدلالي الذي أشرنا إليه فعادة ما يترأى في ثلاثة مستويات. الأول: السياق الجزئي المحتمل في الآية التي وردت فيها الظاهرة.

الثاني: السياق الكلي والذي يتمثل في السورة كلها أو في قطاع منها ينصب على موضوع من الموضوعات الكلية التي تعالجها.

الثالث: رصد التأثير الذي تتركه الظاهرة على السامعين من زاوية الدلالة والبعد الجمالي التابعين من الظاهرة من حيث هي، ومن حيث علاقتها بالظواهر الأخرى.

ويحسن أن يتضمن الدرس الأسلوبى إحصاء للظاهرة يكشف عن مقدار وجودها على أن يعقب الإحصاء بياناً يحول الكم الرقمي إلى كيف دلالي. وبعد..

فإننا نحسب أن ميدان الدرس الأسلوبى للظواهر اللغوية والبلاغية ميدان بكر في حاجة إلى بذل الجهود، ونرجو أن يؤدي ذلك إلى تحرير لغة بعض الدراسات البلاغية للقرآن الكريم من الإنشائية والخطابية، وهو ما يشعرك أن أصحاب هذه الدراسات قد اكتفوا «بوصف» إعجاز القرآن، دون أن يبذلوا جهداً موازياً في «الكشف» عن هذا الإعجاز!

الهوامش:

- قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة عين شمس
- (١) فصل الزركشي في البرهان الأوجه المختلفة لإعجاز القرآن انظر ١٠٧٩٣
- (٢) تقول الدكتورة بنت الشاطن: الواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها جاءت أشبه بصاحات بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يعرف بها. الإعجاز البياني ص ٩٤
- (٣) البقرة ٢٣ - ٢٤